اللغة المصفاة

للدكتور أحمد عبد الستار الجوارى

تمهيد :

لعل مما اعتاد عليه أهل الفكر فى العصور المختلفة أن يشهدوا الاختلاف فى العناية بأمر اللغة بين علماء اللغة الحراص عليها ، وغيرهم ممن يضيق ذرعاً بمقاييس اللغة وقواعدها ، أو يجد عنتا فى الالتزام بأصولها وأسسها . ومن هؤلاء من يتعمد العبث بتلك الأصول والمقاييس أو يزعم أن نقل الأفكار والتجارب العقلية والشعورية ليس مما يتوقف على ضبط قواعد اللغة والالتزام بها ، بل إن منهم من يدعو إلى نبذ ما يعرفه أهل العربية باللغة الفصيحة والعدول إلى لغة الحياة اليومية التى تعرف بالعامية أو اللهجات المحلية، زاعما أنها هى اللغة الحية حقاً ، وأن اللغة الفصيحة لا تملك من أسباب الحياة والحيوية إلا قدراً يسيرا .

على أن فى جملة الحراص على اللغة الداعين إلى التزام الفصيح الصحيح فيها من لا يعبأ كثيراً بالحاجات المتجددة فى الحياة الفكرية والعلمية والتقنية ، التى تطلع فى كل آونة بجديد لابد أن يجد له فى اللغة مايقابله اسماً يسمى به أى لفظ يدل عليه . ومثل هذا الموقف قد يحمل من يقف فى الطرف الآخر على أن يستهين بالتراث الفكرى فى اللغة ، ويحسب أن الحفاظ عليها سليمة فصيحة يقعد عن اللحاق بما ينتجه ويخرجه هذا الركب المغذ فى التقدم العلمى والتقنى . ومن أهم ما يتذرع به هؤلاء أن مايقال له الفصيح نبات بيئة بدوية صحراوية غير متحضرة ، فهو ليس بقادر على التعبير عن حاجات الحضارة ومسايرتها فى تقدمها .

وهم بذلك يتجاهلون أن اللغة العربية كانت فى عصور الازدهار الحضارى لغة العلم والفلسفة وسائر نواحى الحياة الفكرية والاجتماعية والمادية ، ولما تزال آثارها وآثار من كتب بها شاهدة على ذلك. تلك حقبة من تاريخ العربية بدأت منذ نزل بها الكتاب العزيز (قرآنا عربيا غير ذى عوج) استمرت على ذلك قرونا عديدة .

إن هذه الإشارة، بل اللمحة الموجزة مما يكفى ، وليست الإفاضة فى مثل هذا مما يليق بهذا المقام .

(*) ألقى البحث فى الجلسة السادسة لمؤتمر المجمع فى دورته التاسعة والأربعين ، يوم الاثنين ١٥ من جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ الموافق ٢٨ فبراير ١٩٨٣ م) .

— ١ —

إن قضية الفصاحة والبلاغة ما تزال — كما كانت من قبل — محل اختلاف بين من يعبرون باللغة وينشئون ، ومن يتلقون ذلك التعبير ويتذوقون ، ويحكمون عليه بالجمال أو القبح . ثم بين من يعبر باللغة ممن يكون التأثير فى نفس سامعه أو قارئه غاية أمله وكل مبتغاه ، أو من يكون غرضه الإفادة الدقيقة ونقل الأفكار فى صورة لا لبس فيها ولا إبهام ، ولا غموض ولا التواء. الأولون هم الذين يقال عنهم الأدباء فى ما ينشئون من شعر أو نثر ، قصة أو رواية ونحو ذلك من فنون الأدب قديمها ومستحدثها. والآخرون هم العلماء ومن يسلك مسلكهم فى التعبير عن حقائق العلم ونظرات الفلسفة ، ونحو ذلك مما يتحرى فيه جانب الدقة وإصابة الغرض أولا ، وإن من أشهر ما يؤثر عن أسلافنا فى تعريف البلاغة قولهم : إنها إصابة القصد وبلوغه من أيسر طريق . وقالوا قولتهم التى جرت مجرى الأمثال : إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وهى عند كثير منهم إصابة المعنى وبلوغ الغاية فيه ، دقة فى العبارة وجمالا فى صوغها وتركيبها وإبلاغها إلى من يتلقاها واضحة جميلة ، سهلة المدخل فى النفس ، حسنة التأثير فيها .

— ٢ —

وهذا الاختلاف الذى كان بين القدامى من أهل العلم بالعربية له ما يشبهه عند المعاصرين من علماء اللسانيات Lin guisties فإن لهم فى الحكم على اللغة بالصحة والخطأ مذاهب ثلاثة :

المذهب الأول هـو الذى يستهدى بالتاريخ الأدبى ، وفيه تقاس الصحة اللغوية بمقدار الموافقة لما كان يجرى على ألسنة شعراء وأقلام الكتاب وآثار الأدباء الأقدمين .

والمذهب الثانى وهو الذى يسترشد بالتاريخ الطبيعى ، وهو يرى أن اللغة كائن حى ، يتحول تحول الكائن الحى ويتطور دائما إلى ما هو أحسن ، واللغة بهذا الاعتبار تتطور وتتحول إلى ما هو أحسن وأفضل فى جو من الحرية التامة التى لا تقيدها قوانين ولا تتحكم فيها ضوابط ، وعلى هذا المذهب ، فليس فى اللغة صحيح وغلط ، ما دام التطور يقضى بالجديد فى الاستعمال ، وتحكم له بالغلبة على الألسنة والأقلام .

أما المذهب الثالث فهو الذى يصح أن يطلق عليه المذهب الاجتماعى أو النظرية الاجتماعية . وفيه يحكم بصحة اللغة وسلامتها وفصاحتها وبلاغتها بمقدار ما يؤدى إلى فهم السامع ويصل إليه ويبلغه مراد القائل فى دقة وفى سرعة ، وبمقدار ما فى أدائه من يسر وسهولة[1] .

---

(1) Jespersen: Mankind, Nation, anb jndividual from a Linguistic Point of view (85 - 88) .

وهذا الموقف هو الذى يختاره علماء اللغة أولو التأنى والتزام جانب الموضوعية ، وهو الذى يوافق فى جملته موقف علماء العربية ويجرى على سننهم فى ما كانوا يمثلونه أو يتمثلون به بقولهم عن البليغ إنه يصيب المحزّ ويطبق المفصل . ولقدأوجزتْ كل ذلك مقالة إبراهيم بن محمد المعروف بإبراهيم الإمام ؛إذ يقول: يكفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع .

وهو موقف يرعى الجانب الاجتماعى ويجعله أكبر همه، ولا يقتصر فى حكمه على متن اللغة – ألفاظاً وتراكيب – مجرداً منتزعاً ممن ينشئه ويعبر به ، وممن يتلقاه فيتأثر بهارتياحاً وإعجاباً أوحيرة واضطرابا.

– ٣ –

إن هذا المذهب وإن يكن أقرب المذاهب إلى القبول ، فإنه يثير جملة من المشكلات والتساؤلات ،من ذلك مثلا أن يتساءل : أى سامع أو متلق ذاك الذى يتخذ منه معيار للحكم فى تذوقه وفهمه ؟ وأى قائل أو منشئ ذلك الذى يتخذ أداؤه مقياساً لليسر والسهولة أو العسر والوعورة ؟ وأى مجتمع أو شريحة اجتماعية – كما يقال هذه الأيام – ذاك الذى يصح أن يتخذ العرف أو الذوق– الذى يسود فيه – مقياساً للصحة والخطأ أو الجمال والقبح ؟

إن من المجتمعات ما هو منغلق على نفسه محدود العلاقات بغيره ، بحيث يتفرد بطرائق معينة وأساليب خاصة فى التعبير باللغة ، سواء فى ذلك طرائق النطق والتلفظ أو وسائل التركيب وأساليب التعبير ، ومثل هذا الطراز من المجتمعات لا يصح فى هذا الباب أن تتخذ خصائصه وطرائقه اللغوية موازين أو معايير يستهدى بها فى الحكم على التعبير اللغوى ، ما دام الأساس فى الحكم هو إبلاغ المراد من الكلام فى دقة ويسر وفى إمتاع .

وإن من المعاصرين من علماء اللغة من يصف اللغة بالفصاحة والبلاغة ، إذا كان التعبير بها مبرأ من الصبغة المحلية ومما لا يصح أو ينسب قائله إلى إقليم أو بلد ممايتحدث بتلك اللغة . بل إن الفصيحة البليغة هى التى تحررت من كل ما يميز اللهجة الإقليمية مما يجعلها غير يسيرة الفهم أو مستساغة لدى أهل غير ذلك الإقليم[1] .

والذين يرون فى اللغة كائنا حيا يتحول تحول الكائن الحى ويتطور إلى ماهو أحسن، عليهم أن يعتبروا بالعامل الاجتماعى وأن يتدبروا أمره ؛ لأن فيهم من يتخذ من هذه المقولة كلمة حق يراد بها باطل؛ فيستسلم

(1) O. Jespersn ; Mankeind ... et. (78)

للفوضى اللغوية التى تسلم إلى غلبة اللهجات العامية وتفضى إلى تمزيق شمل اللغة وإخلائها المكان للأساليب والتعابير المحلية .

وهذا إنما يؤدى إلى عسر التفاهم بين الناس وهو بالتالى كارثة اجتماعية ينتج عنها التناحر والتنازع وغياب التواصل الفكرى والشعورى بين أفراد المجتمع وأجزائه ، وهو — أعنى التواصل — من أهم وأقوم ما فى حياة الإنسان .

ثم إن التطور البشرى لا يسلم بالضرورة إلى الانشطار والانقسام فى المجتمعات ، بل إنه يسلم — إن كان تطوراً سليما مبرأ من الانحراف — إلى التقارب والتفاهم والتوحيد والانتظام فى سلك منسق من العلائق الاجتماعية ، وأهمها وسيلة التعبير عن المشاعر والأفكار وسائر الحاجات الإنسانية .

إن من مظاهر هذا التطور الاجتماعى السليم قيام المدن الكبرى وما يكون لها من آثار فى تطور اللغة وتوحيد طرق التعبير باللغة وأساليبها وألفاظها . وليس هذا مرجعه إلى كون سكان تلك المدن الكبرى أخصب أذهاناً وأوسع مدارك وأرهف مشاعر ، ولكنه يعود فى جملته إلى عامل اجتماعى يفعل فعله فى هذه المجتمعات الرحبة الوسيعة ، إذ أنها تلقف مما حولها ما يوافق الذوق العام وما يرتضيه الأكثرون من أهلها ويستسيغونه من طرائق النطق والتلفظ وأساليب التعبير . وهى أيضا تقتبس وتغتذى ممن يهاجر إليها أو ينزع نحوها من بقاع أخرى تشاركها فى اللغة ، فتتخير من ذلك ما تختار .

— ٤ —

ونحن واجدون فى تاريخ العربية مصداق هذه المقولة ، وصورة واضحة للتطور اللغوى السليم فى مجتمع عربى ، يمكن أن يعد نموذجا ومثالا صادقاً للمجتمع السوى المتفتح الذى تتلاقى فيه ألوان اجتماعية متعددة وتتفاعل فيه قوى فكرية وشعورية تستمد من منابع شتى ، فيؤتى ذلك كله ثماره فى اللغة وما تشتمل عليه من ألفاظ مفردة وكيف تنطق بها ، أو أساليب وتراكيب منتقاة مهذبة تستبعد مالا يقبله الذوق العام وتستبقى كل حسن جميل مستساغ .

فإن من الأمور التى يكاد ينعقد عليها الإجماع بين علماء العربية ، أن قريشا كانت أفصح العرب ، وأن لغتها هى الفصحى المنتقاة المبرأة مما فى لغات كثير من القبائل من عيوب فى النطق أو فى بناء الكلم أو فى بناء الكلام .

ومعلوم أن قريشا كانت تقطن مكة ، ومكة هى مهوى أفئدة العرب من كل بقاع الجزيرة ، إليها يحجون ، وفيها يتاجرون ، وعلى صعيدها تلتقى وفودهم الآتية من هنا وهناك ، يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويطلع بعضهم بعضاً على ما لديه من أشعار ، أو أفكار ، أو أىٍّ من فنون القول يجدونه أهلا للعرض والنقد ، وفى محافلها

يحتكمون: أيهم أشعر، وأيهم أبلغ، وأيهم أملك لناصية الكلام، وأيهم أكثر رجاحة عقل وحسن تقدير وتدبير.

ومن المعروف أن العلاقات الاجتماعية وما يستتبعها من تداول الأحاديث وتبادل الآراء تقضي بأن يعرض الإنسان على الآخرين خير ما عنده، ويتجنب من العوائد ومظاهر السلوك ما لا يرى في الإعلان عنه والتظاهر به مدعاة فخر ولا وسيلة مباهاة، فلا ينطق إلا بما يحسبه مقبولا لدى الأسماع، مستساغا في الأفهام، وهو يتأنق في حديثه ومنطقه مثلما يتأنق في مظهره وملبسه. والعرب قديما أولو اهتمام باللسان وحسن المنطق، وهم هم القائلون: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» وحكيمهم زهير بن أبي سلمى هو الذي يقول:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ثم إن العلائق الاجتماعية وسيلة من وسائل الاقتباس وسبيل من سبل التواصل بين الناس، تواصل مادة وتواصل فكر وعقل وشعور. ومثلما يتجنب الفرد ما يقدر في نفسه أنه غير مقبول ولا مستساغ لدى الآخرين، فإنه يأخذ عنهم ما يعجب به منهم وما يستحسنه ويرتضيه، سواء في ذلك الجانب المادي في الشكل وما يحيط به، أو الجانب الفكري والمعنوي وما يتصل به من وسائل التعبير باللفظ أو الحركة أو غير ذلك.

وهكذا استصفت قريش لغتها من بين لغات القبائل الذين كانوا يفدون إليها في المواسم ويغشون ديارهم للحج ولغير ذلك من المناسبات.

ولم يكن من قبيل المصادفة أو الاعتباط أن اتخذ الشعراء من لغة قريش لغة الفن الشعري. أياً كانت قبائلهم وأياً كانت منازلهم. فامرؤ القيس، وهو كندي، وزهير وهو غطفاني، وطرفة والأعشى وهما قيسيان، وغير أولئك من فحول شعراء الجاهلية، لم يقولوا الشعر إلا بلغة قريش.

وليس بدعاً بعد ذلك أن تكون روائع القصائد وبدائع الأشعار، مما كان يبدع كبار الشعراء، معلقات تعلق على جدار الكعبة، لأنها ملتقى العرب ومحط رحالهم ومجمع ذوي الرأي والخبرة ونقدة الكلام فيهم.

وفي مثل هذا المعنى يقول أحمد بن فارس في كتابه «الصاحبي»: «وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم، وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل تِعلمون ونِعلم ومثل شِعير وبِعير». (١)

(١) ص ٥٢ – ٥٣

وكل هذه عيوب فى النطق وفى اللفظ تنبوعنها الأذواق وتستنكرها الأسماع .

وإن فى الكتاب العزيز –وقد أنزل بلسان قريش– وصفا لهذه اللغة المصفاة وتنويها بشأنها وإشادة بفصاحتها وبلاغتها . فلقد وصفها بالإبانة والوضوح . قال تعالى فى صفة القرآن الحكيم : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين[1]) وقال تعالى : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)[2] . وكل أوصاف الكتاب العزيز لاتكاد تخلو من وصفه بالإبانة والصراحة والإصابة (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[3] .

ذلك أن الذى يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه هو الغامض المحتمل للتأويل والملتوى المتوعر الذى لا يهتدى فى مسالكه ولا تبلغ فيه الغاية المبتغاة ، وكتاب الهداية والهدى غير ذلك ، بل عكس ذلك بالضرورة ، فهو قيم مستقيم ، واضح بين مبين (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه).

— ٥ —

وثمة قضية يجدر بالباحث فى هذه الأمور أن يقف عليها موقف المتأمل المتدبر ، تلك مقالة ذلك العالم اللغوى التى أرسلها فسارت بها الركبان ، ودارت على الألسن واستقرت فى الأذهان ؛ مقالة أبى عمرو بن العلاء : «لا أقول قالت العرب إلا ماسمعت من عالية السافلة أو سافلة العالية» .

ثم ماكان من دأب أهل اللغة فى الخروج إلى البوادى يأخذون اللغة عن أهلها ، ويستفتونهم فى الحكم على الصحيح وغير الصحيح ، حتى كأن لم يكن بين ظهرانيهم كتاب الله يتلى آناء الليل وأطراف النهار يتدارسه الناس خلفا عن سلف فى ألفاظه وفى معانية وفى مخارج حروفه وطرائق النطق بها .

ثم إنه لاخلاف بين الباحثين قديمهم ومحدثيهم أن لغة قريش هى أصفى وأرق لهجات العرب ، وقد وحد بها الكتاب الكريم تلك اللهجات ، فهل كانت لغة قريش لغة بادية؟ وهل كان لسانها لسان بدو ؟ بل هل كانت هى لغة عالية السافلة أو سافلة العالية كما قيل ؟

أو لم تكن مكة حاضرة العرب وملتقى حجيجهم ، يأتون إليها من كل فج عميق ، يحجون إلى البيت الحرام ، يبتاعون فيها ويشترون ؟

إن لغة قريش هى لغة المدينة ، مدينة مكة ، لا لغة البادية .

ولسان أهل الحضارة ، لالسان أهل البداوة . ثم أصبحت بعد نزول الكتاب

(١) الشعراء ١٩٣ – ١٩٥ (٢) النحل ١٠٣ (٣) فصلت ٤٢

العزيز بها من عند الله، لغة العقيدة والشريعة والحياة الجديدة ، وترجماناً بين أمم الأرض التي ارتضت الإسلام دينا ، وناهيك بنزول القرآن بها وما تبعه من انتشارها في آفاق الأرض ما جعلها لساناً عالميا شارك في صقل حواشيه وخدمة ألفاظه ومعانيه أقوام من أمم شتى يتلى بينها كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويروى حديث النبي -صلوات الله وسلامه عليه- وما أثر عن خلفائه وأصحابه .

هكذا استصفيت العربية واصطفيت لها لهجة قريش لغة مصفاة في الألفاظ وفي التراكيب وفي طرائق النطق وأساليب التعبير ، وبلغت بالقرآن الكريم ذروة ما يمكن أن تبلغه لغة حضارة وعلم وأدب . وحسب من يتطلع إلى أسمى صورها في اللفظ المفرد وفي الكلام المركب أن يتخذ في تلاوة القرآن ودراسته وتذوق جمال التعبير وأفانينه ، قدوة يهتدى بها ويقتبس منها ويستوحيها في فنون القول دقة وجمالا وإصابة .

وبعد ، فإن اللغة المصفاة -وهي وسيلة التواصل الفكري والشعوري- لا بدّ لها أن تتوفر على أمرين مهمين :

الأمر الأول : أن تلتزم القياس الصحيح بشرائطه المستقرة المعتمدة ، وتجرى على سنن ما أثر من كلام الأقدمين .

وفوق هذا وذاك فإن للغة المصفاة ذوقاً قد يقبل القياس وقد لا يقبله ، ويرتضى المسموع من ألفاظ وأساليب ويحتويه ويتبع سبيله ، أو يرفض ذلك ويأباه ، ويستبعده ولا يرضاه . وهذا مما يعرف أحياناً بالحس اللغوى ، وهو ميدان فسيح تجرى فيه الطباع السليمة بما وهبت من قدرة على الإبداع وبما استوعبت من بديع المأثور نظمه والمنثور .

والأمر الثاني : أن يكون الوضوح واليسر والإصابة والدقة عنوان مزاياها وغرة خصائصها فهى لغة أدب رفيع ، وهى أيضا لغة علم متقن دقيق . وألفاظ العلم وأساليبه أحوج ما تكون إلى الدقة والوضوح . فهى محتاجة إلى ذلك بحكم طبيعة العلم الذى تصاغ بها أفكاره وحقائقه ، وهى أيضا محتاجه إليه ؛ لأنها لابد أن تكون لغة الثقافة العامة ، وهى اليوم فرض واجب على أهل العلم أن ييسروه للجمهور ، يأخذ منه ما يتبلّغ به في حياته العامة وحياته العقلية .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

أحمد عبد الستار الجوارى
عضو المجمع المراسل من العراق